القوة الحربية لمصر والشام
في عصر الحروب الصليبية

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

— ٤ —

وتنوعت سفن الأسطول ، فكان منها الشواني Gyaferes وهي أكبر السفن الحربية في مصر وأكثرها استعمالا ، وكانت أهم القطع التي يتألف منها الأسطول ، وهي سفن حربية كبيرة تتخذ بها الأبراج العظيمة والقلاع ، وتزود بالعدد الحربية ، وتجهز بالأسلحة والنفطية لتستعمل في الهجوم على الأعداء والدفاع عن نفسها إذا هاجمها العدو ، وبها اللجام وهو حديدة طويلة محدودة الرأس تقذف به سفن العدو لتخرقها . وبها أيضاً كلاليب وهي خطاطيف كبار من الحديد تطرح عليها فتوقفها (١) . ومنها الجلاسات Gyalasses مفردها جلاسة وهي نوع من السفن الحربية الكبيرة تسير بالشراع والمجاذيف وهي أثقل وأقوى من الشيني . والبطسات وهي من أكبر سفن الأسطول . وكذلك السلنديات وهي مراكب حربية كبيرة مسطحة لحمل القاتلة والسلاح وتعادل في أهميتها الشونة والحراقة . والبطسات وهي من أشهر أنواع السفن في أيام الحروب الصليبية ، قد يكون لها أربعون قلماً (١) كانوا يشحنونها وقت الحرب بالآلات والأقوات والميرة والرجال والقاتلة والأسلحة وآلات الحصار وكانت تحمل آلاف الجند ، ولها أسطح عالية ، وطبقات كل طبقة خاصة بفئة من الجيش . والغربان ولا يبعد أن يكون اسمها مأخوذاً من اسم الغراب لأن مقدمتها على شكل رأسه (٢) ، وهي تحمل النزاة وسيرها بالقلع والمجاذيف منها ما له مائة وثمانون مجذافا . والشارات وتجر بعشرين مجذافا ، ولعلها كانت خاصة بالرؤساء ، كما يفهم من وصف عبد اللطيف البغدادي لها . والقوارب ناقمة لنزاة المسلمين وقت الحرب في البحر ، يكون في كل قارب أربعة أو خمسة من الرماة يميزون غربان المسلمين على قتال غربان الفرنج

(١) نظم الحكم بمصر ص ١٨٢ .

(١) النوادر لابن شداد ص ١٤٩ .

(٢) خطط المقريزي حـ ٣ ص ٣٢ — ٤٤ .

ألوانها . يبدو لنا ذلك مما يقحمه بعض المؤرخين — كابن إياس — من العبارات في ثنايا رواياتهم التاريخية كقولهم في سياق حادثة ما: و « كثر القيل والقال » و « أرجف الناس » و « فاشيع بين الناس » و « ضج الناس له بالدعاء » إلى نحو ذلك من العبارات . وأذكر أن ابن إياس قال في إحدى عباراته ما مؤداه : « إن أهل القاهرة ماتطاق ألسنتهم ، وبل لامرىء تقع عيونهم منه على مذمة »

هذه العبارات وأشباهها تشعرنا بوجود ذلك الإحساس الذي أشرنا إليه ، وإن كانت ساذجة غامضة . غير أن هذا الإحساس لم تتح له حرية كافية للظهور والعمل خوفاً من المستبدين الطغاة ، ولم ينضج نضوجاً كافياً يسمو به إلى تكوين رأي عام له أثر في سياسة الدولة وإدارتها .

على أن التاريخ يحدثنا أن الشعب كثيراً ما نهض إلى معونة حكامه في حروبهم الخارجية ، وقدم إليهم ما طلبوا من الدواب والنفال والمال ، ولم يتأب كثيراً على الضرائب التي يفرضونها عليه ، ولكنه كان يتأبى عليها ويقاومها إذا كانت فادحة ظالمة . ومثال ذلك ما حدث في عهد الأشرف النوري ، فقد فرض ضريبة جائرة ضج لها الناس وثاروا في وجه نائب سلطنته وغيره من الأمراء ، وعرضوا لهم في الطريق ورجموهم بالحجارة ، فأعمل المماليك فيهم السيف وقتلوا منهم وأثخنوا فيهم .

والذي نحب أن نخلص إليه — مما سبق أن نوهنا به — وهو أن هذا الشعب المصري الكريم — على علاته — تكمن فيه روح قومية فطرية نزعة سليمة تحتاج إلى مايظهرها ويحسن توجيهها ويسير بها في الطريق السوي بما يعود بالنفع والعزة لهذا الوطن الكريم .

محمود رزق سليم
مدرس الأدب بكلية اللغة العربية

وقراقيرها[١] . والبركوشات وهى مراكب صغار .

ومنها الحراقات وهى نوع من السفن الحربية كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية ، وكان بها مرام ومنجنيقات تاق منها النيران على العدو[٢] ، وكان فى مصر نوع آخر من الحراقات فى النيل استخدم لحمل الأمراء ورجال الدولة فى الاستعراضات البحرية والحفلات الرسمية[٣] .

والحالات وهى مراكب حربية تحمل الأزواد للرجال ، وآلات الحرب والحمار من الأخشاب الكبار والدبابات وأبراج الزحف وغير ذلك ، ويكون فيها غلمان الخياطة وصناع المراكب ؛ والقراقير ، ولا تقف إلا فى المكان الغزير الماء لأنها سفن عظيمة تحمل الزاد والكراع والمتاع للأسطول ؛ والطرائد وهى سفن صغيرة سريعة الجرى كانت تستعمل غالباً لحمل الخيل وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرساً .

والشيطى ووظيفته الكشف والاستطلاع .

وعنى الخلفاء والسلاطين بتوفير الخشب للأسطول فكانوا يعينون له الحراج ومنها ما هو بالوجه القبلى فى البهنسا وسفط والأشمونين وأسيوط وإخميم وقوص وغيرها[٣م] ، والحراج أشجار من سنط لا تحصى كثرة فى أرجاء المملكة ، ويأمرون بحفظها ، وألا يقطع منها إلا ما تدعو الحاجة إليه[٤] ، وأحياناً تصنع من خشب الجميز ، وهو الخشب الذى جهز به الظاهر بيبرس شوانيه بدل ما تحطم له عند قبرص[٥] ، وحيناً يستخدم له شجر الأثل والنبق والسرو ، وكثيراً ما كانت الأخشاب تجلب من بلدان أوربا الجنوبية على أيدى البنادقة[٦] .

وكان لصناعة الأسطول ثلاثة أماكن بمصر هى جزيرة الروضة ودمياط والإسكندرية[١] ، وموانيه التى كان يرابط بها هى دمياط والإسكندرية وعيذاب على شاطئ البحر الأحمر[٢] ، وعسقلان وعكا وصور وغيرها من سواحل الشام قبل أن يغلب الفرنج عليها[٣] .

والظاهر أن جند الأسطول فى العصر الفاطمى كان مكوناً من المغاربة لمعرفتهم بصناعة البحر[٤] ، وفى عهد صلاح الدين استخدم جنوداً مغربية كذلك وجنداً من المصريين الأتوياء الأشداء[٥] ، وظل المصريون هم المورد الأساسى للأسطول حتى بعد انتقال السلطان إلى المماليك ، فإنا نجد بيبرس يجهز أسطولا لغزو قبرص ، فيه الرئيس ناصر الدين عمر بن منصور رئيس مصر ، وشهاب الدين محمد بن إبراهيم بن عبد السلام رئيس الإسكندرية ، وشرف الدين علوى بن أبى المجد بن علوى السقلانى رئيس دمياط ، وجمال الدين مكى بن حسون مقدماً على الجميع[٦] ، فلما جاء خليل بن قلاوون رتب بالأسطول عدة من المماليك السلطانية وألبسهم السلاح[٧] وإن كان الجند المصرى له الغلبة أيضاً ، وكذلك جند المماليك فى الأسطول فى عهد الناصر محمد بن قلاوون[٨] .

وكانت التعبئة البحرية تشبه أختها البرية أحياناً ، فقد يصنع أمير البحر من سفنه قلباً وجناحين ومقدمة وساقة وقد يصنع مراكبه على شكل نصف دائرة حتى إذا حاول العدو الاقتراب منها أحاطت به ، وقد يقابل أمير البحر عدوه بمراكبه صفوفاً مستقيمة فتقطع مراكبه مراكب العدو بالنجام قريباً من مؤخرها لتغرقها ، أو يشغل أمير البحر مراكب خصمه ببعض المراكب ثم ينقض عليه مرة واحدة من ورائه وهكذا[٩] .

(يتبع)

أحمد أحمد بدوى
مدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

(١) تاريخ الممالك البحرية لعلى ابراهيم حسن .
(٢) عجائب المخلوقات .
(٣) كما يفهم من كلام المقريزى حـ ٣ ص ٣١٥ .
(٣م) نظم الحكم بمصر ص ١٨١ .
(٤) خطط المقريزى حـ ٣ ص ٣١٥ .
(٥) المرجع السابق ص ٣٠٠ .
(٦) نظم الحكم بمصر ص ١٨١ .
(١) خطط المقريزى حـ ٣ ص ٢٨٩ و ٣١٥ .
(٢) ابن بول ص ١٠٥ .
(٣) صبح الأعشى حـ ٣ ص ٥١٩ .
(٤) خطط المقريزى حـ ص .
(٥) الحروب الصليبية للعريني ص ١٨٧ .
(٦) النجوم الزاهرة حـ ٧ ص ١٥٤ .
(٧) خطط المقريزى حـ ٣ ص ٣١٦ .
(٨) المرجع السابق ص ٣١٧ .
(٩) نظم الحكم بمصر ص ١٨٤ .